أثر العطف في تماسك النص

للباحثة / نادية علي محمد سيد

إن الخطاب هو مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة، أي أنه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت لاحق، وجدير بالذكر أن ترتيب الخطاب يخضع لنظرية (نحو النص) وهي نظرية حديثة نسبيًا، فهذه بضاعتنا رُدت إلينا، فقد عني علماؤنا المفسرون بترتيب الخطاب في القرآن الكريم،وأن هذا الترتيب لم يكن عفويًا، وإنما أُحكم إحكامًا،وقد اهتم بالترتيب علماؤنا العرب منهم عبد القاهر الجرجاني الذي اقترح للصياغة أربع مراحل هي النظم والبناء والترتيب والتعليق، ويرى د. تمام حسان أنه" لا شك أن لترتيب الوقائع والأحداث في الخطاب حسب ما تقع في الخارج أهمية في انسجام الخطاب، وكثيرًا ما يؤدي تداخل الترتيب في خطاب ما إلى عدم انسجام الخطاب."[1]

المبحث الأول: أثر العطف في تماسك النص :

المطلب الأول :الترتيب بحسب الكرامة والفضل :

تقديم أعمال القلوب على أعمال الجوارح :

يقول جل جلاله :﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[سورة الأحقاف : (15) نجد في هذا التَّرتيب أنَّه تعالى قدَّم الشُّكر على العمل، لأَنَّ الشُّكر من أعْمال الْقلوب، والعمل من أَعمال الجوارح، وعمل القلب أشرف منْ عمل الجارحة، وأيضًا المقصود من الأعمال الظَّاهِرة أحوال القلب قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[طه: 14] بَيَّن أَنَّ الصَّلاة مطلوبة لأَجل أنّها تفيد الذِكْرَ، فَثبت أنَّ أعمال الْقلوب أشرف من أَعمال الجوارح،والأَشرف يجب تقديمه في الذّكْر، وأيضًا الاشتغال بالشُّكر اشتغالٌ بقضاء حقوق النّعم الماضية، والاشتغال بالطَّاعة الظَّاهرة اشتغالٌ بطلب النِّعم المستقبلة،وقضاء الحقوق الماضية يجرِي مجرى قضاء الدَّين،وطلبُ المنافع المستقبلة طلب للزَّوائد، ومعلومٌ أنَّ قضاء الدَّين مقَدَّمٌ على سائر المهمَّات، فلهذا السَّبب قدم الشكر على سائر الطاعات، وأيضا أنه قدَّم طلب التَّوفيق على الشُّكْر،وطلب التَّوفيق على الطَّاعة على طلب أن يصلح له ذريته،وذلك لأن المطلوبين الأوَّلَيْن اشتغالٌ بالتَّعظِيم

لأمراللَّه،والمطلوب الثالث اشتغالٌ بالشَّفقة على خلق الله، ومعلومٌ أن التَّعظيم لأَمر اللَّه يجب تقديمه على الشَّفقة على خلق اللَّه ." [2]

ويبدو في هذا الترتيب تقديم ذكر بعض الأنبياء عن الآخرين للفضل والكرامة، يقول جل جلاله :﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86)﴾[الأنعام : (83 – 86)]هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء– عليهم السلام– بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولا ﴿نُوحًاإِبْرَاهِيمَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾؛ لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعًا ،ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ من ذلك حظًا وافرًا من المراتب: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه ﴿وَأَيُّوبَ﴾ عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو﴿وَيُوسُفَ﴾ فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ، ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها وقد خص الله بذلك ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ﴾ عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين، ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ ﴾ فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه." [1]

ويقول جل جلاله :﴿ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا..(74) وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ..﴾[الأنفال:74–75]والمهاجرون لهم الأفضلية عند الله فـ (المهاجرون الأولون) أعلى منهم لسبقهم في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل، ولحملهم الأذى من الكفار زمانًا طويلًا، وصبرهم على فرقة الأوطان والعشائر، قال أبو حيان:"فبدأ بالمهاجرينالأولين؛لأنهم أصل الإسلام، وأول من استجاب لله ، فكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان وسبب تقوية الدين، وثنى بالأنصار؛لأنهم ساووهم في الإيمان والنصر وفي الجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل بالهجرة الإيواء والنصرة، وانفرد المهاجرون بالسبق،وذكر ثالثًا من آمن ولم يهاجر ولم ينصر أما القسم الرابع فهم ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾"[2]ويبدو أن فيها ترتيب زماني يتضح من خلال قوله:﴿مِنْ بَعْدُ ﴾."

ويقول جل جلاله:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾[التوبة:111]هذه هي الآية الوحيدة التي تقدّمت فيها النفس على المال؛ لبيان أن النفس عند الله أكرم وأعز من المال الذي هو في الغالب مقدّم على النفس عند الناس، فأمر أن يفكّوا قيد أنفسهم من هذا المال الذي يقيدها وقيل في قوله : ﴿ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾" قدم الأبلغ منهما وهو الرأفة التي هي عبارة عن شدة الرحمة رعاية للفواصل، وهو أمر مرعي في القرآن، وقد يُقال: تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع، والأول أهم من الثاني."[1]

يقول جل جلاله : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة : (112)] وتعرض الآيات صفات المؤمنين مع تقديم بعضها على الآخر للتفاضل فيما بينها، فابتدأ بـ﴿التَّائِبُونَ﴾ إشارة إلى المنزلة العالية للتوبة وأهلها، حيث إن التوبة مقدمة على سائر الأعمال" هذا نعت المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال العظيمة " فأول صفاتهم التوبة، ثم سرد صفاتهم إلى أن وصفهم بـ ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾" جعل الركوع والسجود كناية عن الصلاة، لأنهما خرجا عن مألوف حركة الإنسان وعادته في القيام والقعود، فهما ركنان أساسيان في الصلاة .. ولأن القيام لله أول مراتب التواضع ، والركوع وسطها والسجود غايتها، فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبوديّة لله ونهاية الخضوع والتعظيم له."[2]" وترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن، إذ بدأ أولاً بما يخص الإنسان ، مترتبة على ما سعى ، ثم يتعدى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بما شمل بما يخصه في نفسه وما يتعدى إلى غيره، وهو الحفظ لحدود الله."[3] ولقد أفاد تقديم ذكر النبي في قوله جل جلاله :﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة: (117)]قبل المهاجرين والأنصار في تحقيق توبة الله على المهاجرين والأنصار، حيث إنه (ﷺ) مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فدل ذلك التقديم على عظم شأن هذه التوبة وإتيانها على كل الذنوب. وتقديم المهاجرين على الأنصار؛ لأنهم أفضل بدليل قوله(ﷺ):" (لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار) وبالآية احتج الصدِّيق على تفضيلهم، وتعيين الإمامة فيهم.

سُئل سفيان بن عيينة– رحمه الله – عن فضل العلم فقال: ألم ترَ كيف بدأ الله بالعلم؟ يعني: في قوله:جل جلاله :﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[محمد:19] ، فيكفي في بيان فضل العلم أن الله بدأ به قبل العمل، فالواجب على المؤمن أن يحفل بالعلم، ويبذل

فيه مهجته ووقته وعمره؛لأن العلم تزكو به الأخلاق، وتصلح به الأعمال، ويرفع الله به ذكر العبد في الدنيا والآخرة." [1]

كما أن الأفضلية في ترتيب الإناث على الذكور في قوله جل جلاله: ﴿..يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:50]﴿إناثًا﴾ وبدأ بالإناث لدرء التَّقْصير في حقوقِهنَّ " وتنبيهًا على أنَّ الأُنثى نعمةٌ، وأنَّ نعمتها لا تنقص عن نعمة الذكر وربَّما زادت، وإيقاظًا مِن سنة الغفلة على أنَّ التَّقديم وإنْ كان لما قدَّمَتْهُ لا يُقَدِّمُ تأنيسًا وتوصيةً لهنَّ واهْتمامًا بأمْرهنَّ، ولذلك رغَّب النَّبِيُّ(ﷺ) في الإحْسان إليهنَّ في أحاديث كثيرةٍ ورتَّب على ذلك أجرًا كبيرًا ولأجل تضمين الهبة مع الخلْق عداها باللام مع أنَّ فعلها متعدّ بنفسه إلى مفعولين لئَلا يتوهَّمَ أنَّ الولَد كان لغير الوالد ووهَبه الله لَه. ولمّا كان الذَّكَرُ حاضرًا في الذهن لشرفه وميْل النفس إلَيْه لا سيَّما وقَد ذَكَرَ بِهِ ذِكْرَ الإناث، عرَّفَ لذلك وجبْرًا لما فوَّتهُ منَ التَّقْديم في الذَّكَرِ تنبيهًا على أنَّه ما أخَّر إلّا لَمّا ذَكَرَ منَ المعنى فقال :﴿ويَهَبُ لِمَن يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ أي فقَطْ ليس بيْنَهُنَّ أنْثى كما صنعَ لإبْراهِيم وهو عَمُّ لُوطٍ ولمّا فرَغ من القسمين الأوَّلين عطف عليهما قسيمًا لهما ودلَّ على أنَّه قسَّم بأوْ فقال :﴿أوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أيِ الأوْلاد بجعلهم أزْواجًا أي صنفين حال كونهم ﴿ذُكْرانًا وإناثًا﴾ مجتمعين في بطْنٍ ومنفردين كما منح محَمَّدًا (ﷺ)، ورتَّبهما هنا على الأصل تنبيهًا على أنَّه ما فعل غير ذلك فيما مضى إلّا لنكتٍ جليلةٍ فيجب تطلُّبُها، وعَبَّر في الذِّكْر بما هو أبلغ في الكثْرَة ترغيبًا في سؤاله، والخضوع لديه رجاء نُوالِهِ." [2]لكن هناك صنف آخر موجود في الواقع هو من حُرِم الذكورَ والإناثَ "ولمّا فرغ من أقْسام الموهوبين الثَّلاثة، عطف على الإنْعام بالهبة سلْب ذلك، فقال موضع أنْ يقال مثلًا: ولا يهب شيئًا من ذلك لمن يشاءُ :﴿ويَجْعَلُ مَن يَشاءُ عَقِيمًا﴾ أيْ لا يُولَدُ لهُ. وهذه القسمة الرُّباعيَّة في الأُصول كالقسمة الرُّباعيَّة في الفروع، بعضُهم لا من ذكر ولا أُنْثى كَآدم وبَعضهم من ذكرٍ فَقَطْ كحوّاء عليْها السَّلام، وبعْضُهم من أنْثى فقطْ كعيسى وبعْضهم من ذكرٍ وأُنْثى وهو أغلب النّاس."[3]

كما أن الأفضلية في ترتيب الأصنام، بحسب ما تتشابه معه، يقول جل جلاله :﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20)﴾ النجم : (19 – 20)]ونقول على هذا للأصْنام الثَّلاثة ترتيبٌ، وذلك لأنَّ الأَول كان وثنًا على صورة آدميٍّ والعزَّى صورتها صورة نباتٍ ومناة صورتُها صُورة صخرةٍ هي جمادٌ، فالآدميُّ أَشرف من النَّبات، والنَّبات أَشرف من الجماد، فالجماد متأَخّرٌ والمناةُ جماد فهي في الأخريات من المراتب.[1]

2 – التخلية قبل التحلية :

يقول جل جلاله :﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...﴾ الأنعام :(151)]الآيات مرتبةً جملها أحسن ترتيب، فبدأ بالتوحيد في صريح البراءة من الشرك إشارة إلى أن التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل، وقرن به البر؛ لأنهما من باب شكر المنعم، وتعظيماً لأمر العقوق، ثم أولاه القتل الذي هو أكبر الكبائر بعد الشرك، وبدأه بقتل الولد لأنه أفحشه وأفحش من مطلقهفعله خوف القلة، فلما وصى بأول واجب للمنعم الأول الموجد من العدم، أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب في الوجود، فقال ناهياً عن الإساءة في صورة الأمر بالإحسان﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَانًا﴾، ولما أوصى بالسبب في الوجود، نهى عن التسبب في الإعدام وبدأ بأشده فقال:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ ولما كان النهيعاماً، ثم خص لبيان الجهة فقال:﴿مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أي من أجل فقر حاصل بكم، ثم علل ذلك،ولأجل أن الظاهر هو حصول الفقر قدم الآباءفقال:﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ بالخطاب، أي أيها الفقراء، ثم عطف عليه الأبناء فقال:﴿وَإِيَّاهُمْ﴾ وظاهر قوله في سورة الإسراء:﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[الإسراء: 31] أن الآباء موسرون ولكنهم يخشون من إطعام الأبناء الفقر، فبدأ بالأولاد فقال: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ ثم عطف الآباء فقال:﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾– نبه عليه أبو حيان." [2]

ذكر القرآن على لسان يوسف :﴿.إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37)وَاتَّبَعْتُمِلَّةَآبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يوسف:38"وتقديم الضمير﴿هُمْ﴾ للتخصيص وتكريره للتأكيد ثم ذكر﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه ؛لأن(التخلية مقدم على التحلية)." [3]وهو مبدأ من مبادئ العقيدة .

الترغيب والترهيب :

يقول جل جلاله :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ..﴾ النساء: 77] وفي الآية دلالة على أن إيجاب الصلاة والزكاة كان مقدمًا على الجهاد وهو أيضًا ترتيب مطابق لما في المعقول، لأنّ التعظيم لأمرالله والشفقة على خلق الله مقدمان على الترهيب والقتل في سبيل الله. " [1]

المطلب الثاني : أثر أدوات العطف في التسلسل التتابعي :

عطف الجمل الاسمية :

يقول جل جلاله :﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ المؤمنون : 61]وقال أبو عبد اللَّه الرَّازيّ ترتِيب هذه الصفات في نهاية الحسن لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب

للاحتراز، والثانية على تحصِيل الإيمان باللَّه، والثالثَة على ترك الرياء في الطاعة، والرابعة على أن المستجمع لهذه الصفات الثلاثة يأتي بالطَّاعات مع خوف من التقصير وهو نهاية مقامات الصديقين."[2]

عطف الجمل الفعلية :

يقول جل جلاله :﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (118)وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً﴾ النساء:(119)]وجاء ترتيب هذه الْجمل الْمقسم عليها في غايةٍ من الفصاحة، بدأ أولًا باستخْلاص الشيطَان نصيبًا منهم واصطفائه إيّاهم، ثم ثانيًا بإضلالهم وهو عبارةٌ عَما يَحصل في عقَائدهم من الكفر، ثمَّ ثالثا بتمنيهم الأمانيّ الكواذب والإطماعات الفارغة، ثم رابعًابتبتيك آذان الأَنعام، هو حكم لم يأْذن اللَّه فيه، ثمَّ خامسًا بتغيير خلق اللَّه وهو شاملٌ للتَّبْتيك وغيره من الأحكام التي شرعها لهم. وإنما بدأ بالأمر بالتبتِيك وإن كان مندرجًا تحت عموم التّغْيير، ليكون ذلك استدراجًا لما يكون بعده من التّغيير العامّ، واستيضاحًا من إبلِيس طواعيتهم في أوّل شيء يلقيه إِليهم، فيعلم بذلك قبولهم له. فإذا قبلوا ذلك أمرهم بجميع التغييرات الّتي يريدها منهم، كما يفعل الإنسان بمَن يقصد خداعه: يأمره أوّلًا بشيء سهلٍ، فإذا رآه قد قَبل ما أَلقاه إليه من ذلك أمره بجميع ما يريد منه." [3]

يقول جل جلاله:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾الأنفال:(4)]" لما تقدمت ثلاث صفات قلبية– وهي الوجل وزيادة الإيمان والتوكل– وبدنية ومالية،ترتب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات، والبدنية بالغفران، وقوبلت المالية بالرزق الكريم، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع."[1]

ويقول جل جلاله ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فقد كذبوا فسنأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (6)﴾ الشعراء:5،6]ذكر أنه تعالى لا يحدد لهم توجيه موعظة وتذكير إلا جددوا ما هو نقيض المقصود، وذلك النقيض هو الإعراض والتكذيب والاستهزاء وهذا ترتيب في غاية الحسن، كأنه قيل حين أعرضوا عن الذكر: فقد كذبوا به، وحين كذبوا به، فقد خف عندهم قدْرِه حتى صار عرضة للاستهزاء. وهذه درجات مَن أخذ في الشقاء فإنه يُعرض أوّلا، ثم يصرح بالتكذيب ثانيًا، ثم يبلغ في التكذيب والإنكار إلى حيث يستهزىء." [2]

يقول جل جلاله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾الأنفال :(64)]﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾أي كافيك الله ﴿وَمَنِ﴾ أي مع من ﴿ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويجوز أن يكون المعية من ضميره(ﷺ) فيكون المؤمنون مكفيين، وأن يكون من الجلالة فيكونوا كافين، حتى يكون المعنى: فهو كافيهم أيضًا وهم كافوك؛ لأنه معهم، وساق سبحانه هذا هكذا تطييبًا لقلوبهم وجبرًا لخواطرهم وبالمعنى الثاني– لتضمنه الأول وزيادته عليه– قال ابن زيد والشعبي: حسبك الله وحسبك من اتبعك." [3]

العطف بتكرار العامل :

يقول جل جلاله :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنفال:27]أصل الخون النقص ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء فصارت نقصًا خاصًا، ولعله كرر العامل في قوله:﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ من الفرائض والحدود والنوافل وغيرها إشارة إلى أن الخيانتين مختلفتان، فخيانتهم لله حقيقة، وخيانتهم للأمانة استعارة، لأن حاملها لما أخل بها كأنه خانها. " [4]

عطف أشباه الجمل :

يقول جل جلاله :﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾النور: 45]وفيها لطيفة حيث بدأ بالماشي على بطنه؛ فإنها سيقت لبيان القدرة، وهو أعجب من الذي بعده، وكذا ما يمشي على رجلين أعجب ممن يمشي على أربع. "[1]

تكرار النفي بما:

يقول جل جلاله:﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ الشعراء: 212] وجاءت هذه الجمل الثلاثة منفية على أحسن ترتيب، نَفَى أوّلاً تنزيل الشياطين به، لأنَّ النفي في الغالب يكون في الممكن، وإن كان الإمكان هنا منتفياً ثم نفى ثانياً ابتغاء ذلك، أي:ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاً له.ثم نفى ثالثاً الاستطاعة والقدرة، ثم ذكر علة ذلك وهي انعازلهم عن السماع من الملأ الأعلى؛ لأنهم يرجمون بالشهب لو ﴿ تَسَمَّعُوا﴾." [2]

الحواشي :

(1) النص والخطاب والإجراء / روبرت دي بوجراند/ ترجمة تمام حسان/عالم الكتب/القاهرة/الطبعة الأولى/418/1998م / ص5.

(2) التفسير الكبير 19/28

(1) تفسير الخازن 132/2

(2) نظم الدرر : ج8 / ص338 ، 339 باختصار

(1) روح المعاني : الآلوسي / المجلد السادس / ص / 71 .

(2) مفاتيح الغيب : الرازي / جـ15 /204 بتصرف .

(3) البحر المحيط / أبو حيان : جـ5 / ص107.

(1) شرح ثلاثة الأصول – خالد المصلح الجزء الأول ص 13 باختصار يسير.

(2) نظم الدرر : مج 7/ ص342

(3) السابق : مج 7/ ص343 باختصار

(1) التفسير الكبير 247/28

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 316/7 باختصار

(3) روح المعاني / مج6 / 582

(1) تفسير النيسابوري 449/2

(2) البحر المحيط 7 في التفسير /569

1. (3)السابق : 72/4.

(1) نظم الدرر / ج8 /ص 222

(2) تفسير النيسابوري 264/5

(3) نظم الدر / ج8 /ص 320

2. (4)السابق / ج8 / ص261

(1) البرهان / الزركشي / ص187

(2) اللباب في علوم الكتابالمؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوضالناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان /الطبعة: الأولى، 1419 هـ –1998م92/15